مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

جوانب من الحياة الاجتماعية في منطقة الحوض الأوسط للنيجر خلال القرن التاسع عشر الميلادي من خلال الرحلات الاستكشافية الأوروبية رحلة "مانغو بارك" نموذجًا

هشام بلمسرحة
باحث دكتوراه في العلاقات المغربية الإفريقية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية المحمدية
جامعة الحسن الثاني – المملكة المغربية

مُلَخّص

من المؤكد أن اهتمام الأوروبيين بالقارة الإفريقية عامة، ومنطقة الحوض الأوسط للنيجر خاصة، اندرج في سياق تاريخي محدد ومحسوم فيه الآن، وهو السباق المحموم لاكتشاف المناطق المزمع استعمارها آنذاك. وتبعا لذلك نظمت الدول الأوروبية رحلات استكشافية متعددة الانتماءات والتخصصات، استحوذت فيها إنجلترا وفرنسا على النصيب الأوفر بشكل يعكس اهتمامهما بالمنطقة. يهدف هذا المقال إلى تسليط الضوء على جانب من الرحلات الاستكشافية الأوروبية لمنطقة الحوض الأوسط للنيجر، خلال نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر الميلادي، من خلال نموذج رحلة "مانغو بارك"، ويشتمل هذا المقال على مجموعة من المباحث حاولنا من خلالها التعريف بهذه الرحلة، وبصاحبها وسياقها التاريخي، وأهم الأهداف التي جاء من أجلها صاحب الرحلة إلى منطقة الحوض الأوسط للنيجر، ناهيك عن الصور والانطباعات التي خلفها الرحالة حول المجال المذكور. وقد توصل البحث إلى اعتبار رحلة "مانغو بارك" من الرحلات النفيسة والنادرة، نظرًا لما تزخر به من معطيات وبيانات وإضافات قيمة وفي غاية الأهمية، من شأنها-إذا ما استغلت بالكيفية المثلى والصحيحة-أن تسد الفراغ المعرفي والبياض الذي تشكو منه الكتابات التاريخية المحلية، التي يغلب عليها الشح والابتسار، سواء على صعيد عناصرها الإخبارية أو ما قدمته من حقائق ووقائع موثقة.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ١٠ أبريل ٢٠٢٢
تاريخ قبول النشر: ٢٥ مايو ٢٠٢٢

كلمات مفتاحية:

الحياة الاجتماعية، الرحلات الاستكشافية الأوروبية، الحوض الأوسط للنيجر، "مانغو بارك"

معرّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2022.286058

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

هشام بلمسرحة، "جوانب من الحياة الاجتماعية في منطقة الحوض الأوسط للنيجر خلال القرن التاسع عشر الميلادي من خلال الرحلات الاستكشافية الأوروبية: رحلة "مانغو بارك" نموذجًا".- دورية كان التاريخية.- السنة الخامسة عشرة- العدد السادس والخمسون: يونيو ٢٠٢٢. ص ١٦٧ – ١٧٤.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Corresponding author: hicham.belmsrha.mr@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّورية كَان التَّاريْخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةُ

من المؤكد أن اهتمام الأوروبيين بالقارة الإفريقية عامة، ومنطقة الحوض الأوسط للنيجر خاصة، اندرج في سياق تاريخي محدد ومحسوم فيه الآن، وهو السباق المحموم لاكتشاف المناطق المزمع استعمارها آنذاك. وتبعا لذلك نظمت الدول الأوروبية رحلات استكشافية متعددة الانتماءات والتخصصات، استحوذت فيها إنجلترا وفرنسا على النصيب الأوفر بشكل يعكس اهتمامهما بالمنطقة حيث توافد عدد من الرحالة الأوروبيين ابتداء من أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، كان منهم التاجر والسفير والمغامر والجاسوس والمستكشف والمبشر والأسير والرسام والباحث، نشروا ملاحظاتهم ومشاهداتهم وانطباعاتهم على شكل كتب ومذكرات ورسائل وتقارير مطولة. ويظهر أن أغلب الرحالين والمستكشفين الأوروبيين الذين جابوا مجاهل القارة السمراء-على الأقل منذ مطلع القرن التاسع عشر-كانوا مغامرين، وارتادوا المجهول، واكتشفوا العجيب والغريب، ونقبوا عن الطريف والمدهش، وخرجوا عن المألوف، بحثا عن الثراء السريع، ورغبة في الحصول على جائزة خاصة، وقد كانت من الغايات الرئيسية التي دفعتهم إلى التنقل إلى عين المكان، متجشمين عناء السفر في البر والبحر، ومخاطرين بأرواحهم وأجسادهم، أملا في تحقيق بعض المكاسب المادية والمعنوية والرمزية. وفي هذا السياق جاءت رحلة المستكشف الاسكتلندي "مانغو بارك"، التي تعتبر من أوائل الشواهد المصدرية التاريخية الأوروبية، عن منطقة الحوض الأوسط للنيجر في أواخر القرن الثامن عشر. ومطلع القرن التاسع عشر، حيث استطاعت أن تمدنا بمعلومات ومعطيات وإيماءات نفيسة وكثيفة، عن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية والثقافية والجغرافية وكذا الحياة اليومية، والعادات والتقاليد والاحتفالات، من داخل منطقة الحوض الأوسط للنيجر خلال القرن التاسع عشر، وذلك في وقت انقطعت فيه الأخبار عن هذا الجزء من القارة السمراء.

إذن، ما هي الصورة التي رسمها الرحالة والمستكشف الإسكتلندي "مانغو بارك" عن منطقة الحوض الأوسط للنيجر؟ وإلى أي حد تمكن من تشخيص الواقع الاجتماعي للمجال المذكور في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر الميلادي؟

أولاً: التعريف بالمستكشف "مانغو بارك" ورحلته إلى منطقة الحوض الأوسط للنيجر

١/١-تعريف "مانغو بارك"

ولد الرحالة والمستكشف "مانغو بارك" في سيلكيركاشير[١] في إسكتلندا في ٢٠ سبتمبر ١٧٧١، في فاولشيلز أون ذا ياورو، في المزرعة التي استأجرها والده من دوق باكلوك. وكان الطفل السابع لفلاح إسكتلندي في عائلة من ثلاثة عشر نفرا[٢]. تلقى تعليمه في المدرسة الثانوية بالمنطقة، وبعد أن تلقى تعليما جيدا، رافق جراحًا يدعى توماس أندرسون في سيلكيرك، وبعد ذلك التحق بجامعة إدنبرة ما بين (١٧٨٩-١٧٩١) لدراسة الطب، وحصل على دبلوم في الجراحة[٣]، وبعدها إلتقى بالسير جوزيف بانكس[٤]، الذي كان وقتها رئيسا للجمعية الملكية، وقدمه صهره جيمس ديكسون وهو عالم نبات ذو سمعة، ثم حصل على مركز جراح مساعد على متن سفينة "وورسستر" وقام على متنها برحلة في عام ١٧٩٢م إلى بنغكولو في سومطرة[٥]، وعند عودته في عام ١٧٩٣م ساهم في وصف ثمانية أسماك سومطرية جديدة إلى محضر تقارير المجتمع الليني، ثم دخل الكلية الملكية للجراحين بإنجلترا[٦]، وقد عرض خدماته في عام ١٧٩٤ على الجمعية الإفريقية[٧]، وهي التي كانت حينئذ تبحث عن خليفة للرائد دانيال هوتون[٨] المتوفى في الصحراء أثناء قيامه عام ١٧٩٠ باكتشاف مجرى نهر النيجر.

كما نجح في رحلته الأولى (١ يونيو ١٧٩٥ إلى ١٠ يونيو ١٧٩٧) حيث اخترق خلالها حوض السنغال الأعلى حتى بلغ نهر النيجر كأول أوروبي يصل إليه، بل وصل إلى تمبوكتو[٩]. وفي رحلته الثانية (٣١ يناير ١٨٠٥ إلى يناير ١٨٠٦) بلغ فيها نهر النيجر، وتوغل في صانصاندينك[١٠] وسيكو[١١] رغم فقدانه لكافة أعضاء فريقه باستثناء واحد منهم، متحديا هذا الوضع، ومع ذلك واصل الاستكشاف حتى نهاية نهر النيجر، وإن كان يتوقع بلوغه في أواخر يناير ١٨٠٦. بيدا أن قلة مؤنته وتعرض ما تبقى من فريقه لهجمات السكان الأصليين أدى إلى سقوطه غريقا في نهر النيجر[١٢].

٢/١-السياق التاريخي لرحلة "مانغو بارك" إلى منطقة الحوض الأوسط للنيجر

تعود وقائع هذه الرحلة إلى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي وبداية القرن التاسع عشر الميلادي، ففي ظل التحولات السياسية والتقنية والاقتصادية والاجتماعية التي عرفها النظام الرأسمالي الأوروبي خلال القرن التاسع عشر، برزت الظاهرة الاستعمارية سبيلا لتجاوز التناقضات

الاقتصادية والاجتماعية والمالية المرتبطة بهذا النظام. حيث نشطت إبان تلك الحقبة الرحلات الأوربية الاستكشافية فيما وراء البحار، في إطار التمهيد لتدشين المشاريع الاستعمارية الأوربية بالعالم؛ عبر التقرب والانفتاح على المجتمعات غير الأوربية، ودراسة مظاهر حياتها الاجتماعية والثقافية وتركيبتها الإثنية ووضعيتها السياسية وبنياتها الاقتصادية، مما مكن من تقديم صورة دقيقة عن العوالم المستهدفة، وضمن هذا السياق جاءت رحلة "مانغو بارك" الاستكشافية سنة ١٧٩٥م، في إطار الرحلات التي أرسلتها الجمعية الجغرافية الإفريقية[١٣] للكشف عن نهر النيجر[١٤]. حيث عرض بارك خدماته في عام ١٧٩٤ على الجمعية الأفريقية، التي كانت تبحث عن خليفة للرائد دانيال هوتون الذي تم إرساله في عام ١٧٩٠ لاكتشاف مجرى نهر النيجر إلا أنه مات في الصحراء[١٥].

١/٣-أهداف رحلة "مانغو بارك" إلى منطقة الحوض الأوسط للنيجر

نستطيع القول من خلال ما توافر لدينا من معلومات، أن رحلة "مانغو بارك" الاستكشافية إلى منطقة الحوض الأوسط للنيجر، كان لها هدفين أساسيين أكدهما "مانغو بارك" بنفسه حيث جاء على لسانه "ينبغي عليّ أن أهلك في رحلتي، كما ينبغي أن تهلك معي آمالي وتوقعاتي، وينبغي عليّ كذلك أن أنقل جغرافية إفريقيا بحيث تصبح معروفة أكثر لأهل بلدي، وأن أفتح أمام طموحاتهم وأمام صناعاتهم مصادر جديدة من الثروة، وقنوات جديدة للتجارة"[١٦]. وبذلك تُعَدّ هذه الرحلة غاية في الأهمية لما قدمته لنا من معلومات متعددة ومتنوعة، شملت الجانب التاريخي، السياسي، العسكري، الاجتماعي، الاقتصادي، الديني والثقافي، كما أنها أمدتنا بمادة جغرافية وصفية دسمة مهمة ومتباينة، تصنف ضمن الجغرافية الطبيعية والجغرافية البشرية، على الرغم من كون الرحالة لم يكن عالمًا جغرافيًا.

١/٤-مسار رحلة "مانغو بارك" إلى منطقة الحوض الأوسط للنيجر

كانت انطلاقة رحلة "مانغو بارك" الاستكشافية إلى منطقة الحوض الأوسط للنيجر سنة ١٧٩٥م[١٧]، حيث بدأ رحلته من بلدة بيزانيا[١٨] الواقعة على نهر غامبيا، ومنها عبر منطقة منابع نهر السنغال، ثم وصل إلى بلدة سيغو الواقعة على نهر النيجر[١٩]، وسار بعدها مسافة لكنه اضطر للعودة مع قافلة حتى نقطة البداية، وبعد ذلك سافر إلى لندن فوصلها سنة ١٧٩٧م[٢٠]. ولعل ما يلاحظ في هذا الصدد أن الرحالة "مانغو بارك" قد زار مجمل منطقة الحوض الأوسط للنيجر من الغرب إلى الشرق، في إقبال نادر ورغبة جامحة واندفاع غريب، نحو غايته الرئيسية وهي الكشف عن نهر النيجر.

١/٥-رحلة "مانغو بارك" إلى منطقة الحوض الأوسط للنيجر (قراءة في قيمتها العلمية، ومكانتها التاريخية)

لا مشاحة في أن رحلة "مانغو بارك" تعتبر بحق من أهم الكتابات الرحلية الأجنبية، التي أرخت بدقة متناهية لأوضاع الحوض الأوسط للنيجر الاجتماعية، تحديدا في نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، وهكذا أسهمت هذه الرحلة الاستكشافية الاثنوغرافية بجلاء في بلورة ومعالجة قضايا وموضوعات تاريخية واجتماعية وأنثروبولوجية جد نادرة، بل ومثيرة، وإنصافا منا نقر جازمين أن هذه النوعية من البيانات والمعطيات ذات الطبيعة الاجتماعية والأنثروبولوجية كانت غاية في الأهمية،إذ لم نكن نعتقد أو نتصور إطلاقا أن تلتفت إليها هذه الرحلة الاستكشافية، أو بالأحرى أن تكشف عن الكثير من التفاصيل والجزئيات حولها، حيث درس صاحب الرحلة- بشكل دقيق ومسهب-الحياة اليومية والمعيشية للسكان؛ مثل الطعام واللباس والسكن والاستهلاك، كما عمل على وصف أنماط العيش والعادات والتقاليد وكذا الفنون والفلكلور والمعتقدات والطقوس والمتخيل... إضافة إلى ظواهر اجتماعية أخرى مثل؛ الرق والحرية والجنس والشعوذة والسحر واللهو والجريمة والدين والعنف والتمثلات والذهنيات وسلوك الناس المحليين وعناصر الثقافة المادية واللامادية.

ثانيًا: جوانب من الحياة الاجتماعية

يحفل نص "رحلات من وسط القارة الإفريقية" للرحالة والمستكشف الإسكتلندي "مانغو بارك" بمعطيات عديدة، وبيانات متنوعة، حول مختلف العوائد الاجتماعية، التي كانت منتشرة في مختلف ربوع الحوض الأوسط للنيجر في القرن التاسع عشر، مثل؛ الطعام واللباس والسكن والتعليم، كما يحفل النص أيضًا بمعلومات وإيماءات جد نادرة وثمينة بخصوص مجمل الظواهر الاجتماعية التي كانت متفشية في المجتمع الإفريقي، إبان القرن التاسع عشر الميلادي. من قبيل شرب الخمر والدخان وتفشي ظواهر السحر والشعوذة والجهل وتفشي ظاهرة اللصوصية والحرابة وما سواها من ظواهر وقضايا اجتماعية شائعة ومسكوت عنها، وما زاد من قيمة وجودة المعلومات التي اختزنها الرحالة في ذاكرته ودونها في مؤلفه كونها معطيات ميدانية استقاها بنفسه من عين المكان، الشيء الذي جعلها تتميز ببعد توثيقي هام، مما أكسبها مصداقية تجعلنا نطمئن إلى نتائجها ودقتها وصدقها.

٢/١-العادات الاجتماعية

أ- الطعام

لقد وصف الرحالة والمستكشف الاسكتلندي "مانغو بارك" عددا من الأطعمة التي قدمت له أثناء تجواله في منطقة الحوض الأوسط للنيجر، والتي يأتي في مقدمتها الكسكس، بوصفه الأكلة الرسمية والمفضلة للأهالي[٢١]، إضافة إلى أطباق تعتمد على لحم الغنم والبقر والماعز، بينما يصنع الخبز غالبا من الذرة أو الشعير الذي يقدم مع العسل ولبن المواشي أو الشاي، ومن جهة أخرى نجد أن المغاربة قد أضافوا العديد من عاداتهم إلى أنماط الأكل هناك[٢٢]، حتى أصبحت جزءا من الوجبات اليومية، وبالمقابل نجد أن الوجبات التي تعتمد أساسا على الذرة والأرز أضحت أيضًا من الأطعمة المفضلة لدى السكان، أما الأسماك فكانت في الغالب تؤكل مجففة، وقد غلب استعمال الأرز على الأطباق أكثر مما سواه من أنواع الحبوب والقطاني، وكذلك كانت لهم أطعمة تعتمد أساسًا على الزبدة[٢٣] وزيت الزيتون اللذان يدخلان في إعداد الأكلات الشهيرة عندهم كالقطاني والتخمير التي يتم تحضيرها من الذرة، وهي إحدى أنواع العصيدة، التي لا تختلف كثيرًا عن طريقة إعداد المرطبات وهي الذرة المطبوخة في الحليب[٢٤]، والتي تقدم في صبيحة المناسبات والأعياد بمعية المكسرات أو مع البيض والذرة المسلوقة والتمر وطبق الديجة وهي الذرة بالحليب[٢٥]، هذا بالإضافة إلى بعض الخضر والفواكه المحلية كالبطيخ والطماطم والبطاطا والملوخية والبصل والقرع[٢٦] وورق التبلدي الأصبعي وطحين ثمرته والقرع والفصوليا وأوراق بقل الروم "جيسوما" التي تذكر بحموضة الكربل المدرجة ضمن التوابل مع زبدة البقر أو الغنم وزبدة الشيا "بولانحا" ومختلف التوابل[٢٧].

ب- اللباس

يلبس الرجال ثوبا فضفاضا لا يختلف عن اللوح، مع أدراج تصل إلى منتصف الطوق إلى أسفل الساق[٢٨] ويسمى "سيبي" وهو سروال واسع لكنه أضيق قليلاً من السروال التقليدي المغربي، ويصنع على العموم من القطن ولا يحيد عن اللونين الأزرق أو الأبيض، إلا أن الهندام لا تكتمل إلا مع "طيلي" وهو لباس مفتوح الجانبين وغير مخيط إلا في أطرافه السفلى، مانحا بذلك أكمام واسعة جدا، ويتوفر هذا اللباس على جيب عميق عند الصدر، غالبا ما يملك الموسرون اثنين من تلك الطيبليات إحداهما بيضاء والثانية زرقاء، ويستبدل البعض منهم الطيبلية بلباس آخر تدعى "المصاورية"، وهي قميص واسع الأكمام، وعند ارتداء لباسين تلبس المصاورية في الأسفل[٢٩]، أما "الفرنجة" فهي لباس قريب الشبه ويتم ارتداؤه بنفس الشاكلة، ولا يرى أبدا شخص ذو اعتبار دون قطعة من القماش على الكتف وتقوم مقام برنس أهالي الشمال[٣٠]، وهو في الغالب تجميع لشرائط القطن المحلي الأبيض، المطرز بخط أحمر أو بمستطيلات صهباء صغيرة، وتحمل قطعة القماش تلك تسمية "سيمفيتي"، وهناك نوع آخر من السيمفيتي مكونة من شرائط زرقاء غامقة شديدة الضيق تدعى "ديزا"، وهو لباس طويل الشراشيب[٣١]، ويرتدون صنادل على أقدامهم وقبعات قطنية بيضاء على رؤوسهم[٣٢].

أما بالنسبة للنساء فيتكون لباس المرأة من قطعتين من القماش، يلتف كل منهما حول الخصر، وتتدلى حتى الكاحلين، لتلبي الغرض من التنورة الداخلية، والأخرى ملقاة بإهمال على الحضن والكتفين[٣٣]، كما تحيط النسوة عوراتهن بنسيج حريري أو وزرة من كافة الألوان ومن مختلف الأثواب، من القماش الخشن المحلي إلى القطن الأوروبي المستورد، والطيلي المزركش بالحرير شائع في أوساطهن على غرار الرجال[٣٤]، كما يرتدين أيضًا "الصاية" أو المصاورية بأكمامها الواسعة والتي تنتهي بدورة، وكافة هاته الألبسة مزدانة قليلا أو كثيرا بالحرير الأحمر أو الأبيض أو الأصفر أو الأخضر حسب ثراء صاحبتها[٣٥]، كما يرتدين في أرجلهن نعالاً عربيًا أحمر، بالإضافة إلى نعال مزركشة بالحرير ذات بطانة دقيقة[٣٦].

ج- السكن

لقد تميز السكن في منطقة الحوض الأوسط للنيجر في مجمله بالبساطة، حيث يكتفون بأكواخ صغيرة وغير ملائمة، تتشكل من جدار طيني دائري يبلغ ارتفاعه أربعة أقدام، ويوضع فوقه سقف مخروطي الشكل، يتكون من قصب الخيزران، مغطى بالقش والعشب، ويتشابه قصر الملك مع كوخ العبد[٣٧]، أما أثاثهم المنزلي فبسيط بنفس القدر، وداخل الكوخ ينتصب حاجز من العصي الموضوعة على أوتاد منتصبة، على بعد حوالي قدمين من الأرض، ومبسوط عليها سجادة أو جلد ثور تلبي الغرض من السرير، ويتكون الباقي من جرة ماء وبعض الأواني الفخارية لتعليب طعامهم، وعدد قليل من الأوعية الخشبية والكالاباش وهي القصعة، وكرسي واحد أو اثنين منخفضين[٣٨].

د- التعليم

الحقيقة أن المعلومات الواردة بكتب الرحالة عن المؤسسات التعليمية تتصف بالندرة الشديدة، ولعل انشغالهم

بتسجيل الأمور الاقتصادية والجغرافية والسياسية جعلهم يضربون عن هذه المؤسسات الآنفة الذكر صفحا، بيد أن ذلك لم يحل دون ورود إشارات عفوية بهذا الخصوص، فقد أشار الرحالة "مانغو بارك" إلى الكتاتيب[٣٩] (مدارس صغيرة)، في المدن المختلفة[٤٠]، حيث يتعلم الأطفال الوثنيون والمسلمون قراءة "القرآن الكريم" وسنة الرسول (ﷺ)[٤١]، ويركز علماء الدين المسلمون على الجوانب العقلية وصياغة حياة وشخصية تلاميذهم، بحيث لا يمكن بعد ذلك تغييرها أو تعديلها، كما يقول بارك: "وقد زرت كثيرًا من هذه المدارس الصغيرة (الكتاتيب) أثناء تقدمي في المنطقة، ولاحظت بسعادة ما يتحلى به التلاميذ من طاعة مطلقة، ووددت من كل قلبي أن لو كانوا يتلقون دروسًا أفضل وديناً أنقى[٤٢].

هـ-العادات والتقاليد

الضيافة والكرم

يُعَدّ الكرم من أبرز العادات والتقاليد التي عايشها الرحالة في منطقة الحوض الأوسط للنيجر، وأسهب في ذكرها والإشادة بها، سواء ما تلقاه من الملوك أو كبار الشخصيات وحتى من عامة الشعب، فقد تنافس البدوي والحضري في الكرم وحسن الضيافة، وتلك الصفة متأصلة في الإنسان الإفريقي منذ القدم، فلما جاء الإسلام أكد عليها وحض المسلمين على البذل والعطاء وإكرام الضيف.

وعادة الكرم لها ضرورتها في تلك المنطقة من القارة السمراء، وقد أدرك السكان ذلك فبذلوا كل ما في وسعهم لإكرام ضيوفهم، وكانت مظاهر الكرم تتجلى في الترحيب بالضيف ومؤانسته، وفي هذا الصدد أكد "مانغو بارك" بقوله: تقدمنا دون توقف حتى وصلنا أمام منزل الملك، كنت محاطًا تمامًا بجموع المتفرجين، لدرجة أنني لم أحاول التراجع لكنني أرسلت إلى المالك وابنه مادي كونكو[٤٣] أعلمه بوصولي، وبعد قليل عادوا برفقة رسول من الملك مشيرًا إلى أنه سيراني في المساء، وفي هذه الأثناء كان للرسول أوامر بتأمين مسكن لي، ورؤية أن الحشد لم يتحرش بي، ثم قادني إلى محكمة وعند بابها وضع رجلاً بيده عصا لإبعاد الغوغاء، ثم أراني كوخًا كبيرًا كان من المقرر أن أسكن فيه ونادراً ما جلست في هذه الشقة الفسيحة، وفي المساء أرسل لي الملك شاة من أجل وجبة العشاء[٤٤].

عاداتهم في الطعام

تقدم ثلاث وجبات رئيسية في اليوم، "الجيركاري" أو الفطور حوالي الثامنة صباحا، حيث يتناول خلالها بقايا وجبة الليل السابقة أو الخبز المبلل في الزبدة والعسل، أو الهبة وهي نوع من الحساء المصفى والمعد بالطحين أو الدخن[٤٥] أو القمح المتصلب والمسحوق بالتوابل المختلفة، ثم وجبة "التيركوزي" أو الغداء والذي يتم تناوله حوالي الثانية والنصف بعد الزوال، وفي المساء وجبة "الهاورو" أو العشاء والتي يتم تأخيرها إلى منتصف الليل[٤٦]، وإلى جانب الوجبتين الأخيرتين يؤكل "التازو" أو الكسكس لعدة مرات في اليوم، بينما يتناول الموسرون الشاي، أما القهوة فهي قليلة التداول جراء ندرتها[٤٧].

٢/٢-سلوكيات وظواهر اجتماعية

أ -ظاهرة تعدد الزوجات

لقد شكلت ظاهرة تعدد الزوجات إحدى أكثر الظواهر إثارة لانتباه الرحالة "مانغو بارك" أثناء تجوله في هذا المجال، وهذه الظاهرة كانت حكرا على الرجال الأحرار دون غيرهم من العبيد[٤٨]، إذ يقول بارك في هذا الصدد "نظرا لأن كل رجل حر لديه عدد كبير من الزوجات، فإنه من الضروري لمنع-على ما أعتقد-الخلاف الزوجي أن يتم استيعاب كل واحدة من السيدات في كوخ خاص بها، وجميع الأكواخ التي تنتمي إلى نفس العائلة محاطة بسياج مبني من قصب الخيزران[٤٩].

ولم يكتفي "مانغو بارك" بإيراد هذه المعلومات بل أطنب في الحديث عن المشاكل التي يطرحها تعدد الزوجات؛ والتي كان أبرزها عدم قدرة الزوج على فرض سلطته على أزواجه، مما جعله يلجأ إلى "الممبو جومبو" وفي هذا الصدد يقول "مانغو بارك" "وكان هذا الغول بالنسبة لسكان مدن المانديغو[٥٠]، وعرف باسم "ممبو جومبو"، وكان الرجال هم الذين يرتدون هذا الثوب (ثوب الغول) كي تبقى نسائهم خاضعة لهم، وفيما يتعلق بالرجال في هذه القبائل فإنهم لم يتقيدوا بحد عند تعدد الزوجات، فكل رجل يتزوج أكبر عدد من السيدات[٥١]، يمكن أن يحتفظ بهن بسهولة، وكثيرا ما يحدث أن الزوجات لا تتفقن فيما بينهن، وفي بعض الأحيان كان النزاع الأسري يصل إلى الذروة لدرجة أن سلطة الزوج لم يعد في مقدورها حفظ السلام في بيت الزوجية، وفي هذه الحالة يستدعى "الممبو جومبو" وهو في كل الأحوال يكون الفيصل الحاسم[٥٢]، وكان هذا الوزير القريب للعدل والذي من المفترض أن يكون فيه الزوج نفسه أو أحد الأشخاص الذين يختارهم الزوج أيضًا، يرتدي هذا اللباس الحقير والذي أشرنا إليه من قبل، وأن يتسلح بصولجان يمثل السلطة العامة ثم يعلن قدومه بصرخات مرتفعة وحزينة، وبعد ذلك يبدأ تمثيله الصامت وبخاصة عند اقتراب الليل، وعلى الفور يحتشد سكان المدينة وبعد ذلك يبدأ الحفل بالأغاني والرقص

الذي يستمر حتى منتصف الليل، وعند هذا الحد يستقر رأي "الممبو جومبو" على المذنب[٥٣]، وبعد ذلك يلقي القبض على الضحية، وينزع ملابسها فتصبح عارية، وتربط في عمود وتجلد بعصا "الممبو جومبو" وسط صياح وسخرية المحتشدين، ومن الملاحظ أن بقية السيدات يصحن بأعلى أصواتهن في هذه المناسبة على أخواتهن غير السعيدات"[٥٤].

ب-شرب الدخان

يستشف من إشارات الرحالة "مانجو بارك"-باعتباره شاهد عيان-أن شرب الدخان زمن تجوله في منطقة الحوض الأوسط للنيجر خلال أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ومطلع القرن التاسع عشر الميلادي، كان من العادات والسلوكيات الرائجة والمتفشية في المجتمع الإفريقي، ويذكر أن الزنوج لا يذهبون لتناول العشاء حتى وقت متأخر، ومن أجل تسلية أنفسهم أثناء تحضير اللحم البقري، كان من المرغوب فيه أن يروي الماندينغو بعض القصص المشوقة عند الاستماع إليها، وتدخين التبغ[٥٥]، كما يوجد في كل مدينة مسرح كبير يسمى بنتاج، والذي يستجيب لغرض القاعة العامة أو منزل المدينة، ويتكون من قصب متشابك، وهي محمية بشكل عام من أشعة الشمس بحكم إقامتها في ظل بعض الأشجار الكبيرة، وهو الموضع ذاته الذي يتم فيه التعامل مع الشؤون العامة والمحاكمات، كما يجتمع فيه الكسالى والبطيئون للتدخين وسماع أخبار اليوم[٥٦].

ج-معاقرة الخمور

بين المستكشف "مانغو بارك"، أن الخمر بأنواعه المختلفة، كان من بين المشروبات التي تقبل عليها بعض الفئات الاجتماعية أيما إقبال، ومما يجعل السمر معهم لطيفا تناولهم الجعة (البيرة)، التي يصنعونها بتخمير الذرة، ولم أذق أفضل من هذه البيرة في بريطانيا العظمى[٥٧]، ويطلقون على البيرة اسم "نيو دولو" ومعناها روح القمح أو الذرة، وفي إحدى هذه الحانات رأيت حوالي عشرين شخصا جالسين حول وعاء كبير مليء بهذه البيرة وهم في حالة مرح صاخب، وكان كثيرون منهم في حالة سكر بين[٥٨].

د-الجهل والتخلف

إن قراءة فاحصة في ثنايا رحلة "مانغو بارك"، مكنتنا من تحديد مجموعة من الصور والانطباعات، التي ركز عليها صاحب التأليف، وهو يدرس مجال وإنسان منطقة الحوض الأوسط للنيجر، وهي صور حاول من خلالها تقريب الآخر الإفريقي غير المسيحي الذي يعاني من الفوضى والتأخر والجهل والتخلف، ومن بين الإشارات التي سجلها الرحالة حول هذه النقطة بالذات، جزمه أنه من غير الممكن أن لا تندهش من التأثير المدهش للخرافة، فغالب الزنوج على الوثنية ويرفضون تماما العقيدة الإسلامية[٥٩]، ولم ألتق بإنسان سواء أكان مسلما، أم كافرا إلا ويؤمن إيمانا قاطعا بجدوى هذه التعاويذ والأحجبة، و الحق أن كل أهل البلاد في هذه الأنحاء يعتبرون الكتابة أمرًا مرتبطًا بالسحر، وأن الكتابة ليست من سنة النبي صلى الله عليه وسلم وإنما من عمل السحرة[٦٠]، وتعتمد الكتابة على ما تيسر من أوراق مستوردة أجلود محلية، إضافة إلى أقلام تصنع عادة من القصب، كما شكلت القرون قيمة عالية لاستخدامها في عمل التمائم والتعاويذ، التي يطلقون عليها "سافيز" والتي يضعها الزنوج حول أجسامهم، وتضم هذه الأحجبة والتمائم بضع آيات من القرآن الكريم، التي يكتبها بعض الشيوخ المسلمين على قصاصات من ورق ويبيعونها للبسطاء من أهل البلاد الذين يعتبرونها ذات تأثير كبير، وبعض الزنوج يضعون هذه الأحجبة حول أجسامهم لتقيهم عضات الأفاعي والتماسيح، ومما يذكر بهذه المناسبة أنهم عادة ما يربطون هذه الأحجبة "السافيز" حول كواحل أقدامهم بجلد أفعى أو تمساح، وبعضهم يستخدمها أثناء الحروب لتقيهم أسلحة الأعداء، لكن الاستخدام الشائع لهذه التمائم والأحجبة هو الوقاية من الأمراض والوقاية من آلام الجوع والعطش، واسترضاء القوى العليا طلبا لتأثيرها الطيب على ظروف الحياة وأحداثها[٦١].

هـ-اللصوصية وقطع الطريق والسرقة

يحتفظ لنا الرحالة "مانغو بارك" بمعطيات تاريخية مهمة حول اللصوصية وقطع الطريق واعتراض السابلة في هذا المجال بشكل عام، والصحراء الممتدة إليه على وجه الخصوص، خلال أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ومطلع القرن التاسع عشر الميلادي، وهكذا كان بإمكان هذه البيانات أن يطويها الزمن وتحشر في غياهب النسيان لولا أنه اختزنها الرحالة في ذاكرته ودون في رحلته هذه المعلومات، والتي هي في الأصل جاءت نتاج تجربة عاشها الرحالة مانجو بارك وعاشها الكثير من الرحالة الذي جاءوا سواء قبله أو بعده، حيث أن الإغارة والسلب والنهب والسرقة كانت موجودة سواء على طول الطرق والمسالك التجارية الصحراوية المؤدية إلى منطقة الحوض الأوسط للنيجر وحتى في المجال المدروس.

يبدو من الجلي الواضح من خلال ما دونه الرحالة "مانغو بارك" أن اللصوصية وقطع الطريق والإغارة والسرقة كانت من الظواهر الشائعة والمفشية في منطقة الحوض الأوسط للنيجر خلال القرن التاسع عشر الميلادي، كما أن تلك المعطيات

تمكن الباحث من إلقاء أضواء كاشفة على الأوضاع الأمنية التي تبدو هشة ومضطربة في المنطقة المذكورة خلال الفترة المدروسة.

و-ظاهرة العبودية

شكلت ظاهرة العبودية أحد الظواهر المتجذرة في المجتمع الإفريقي، وفي هذا الصدد يقول "مانغو بارك": "أنه كان ملوك هذه الدول الوثنية في حالة حرب مع الآخر، وكان هدفهم الوحيد من هذه الحروب هو الاستيلاء على المساجين (أسرى الحرب) وبيعهم كعبيد[٦٢]، وكانت تجارة الرقيق هي الشكل التجاري الوحيد، حيث كانت تجارة مربحة للغاية[٦٣]، إذ أن ما لا يقل عن ثلاثة أرباع من السكان من مجموع ما قابلتهم كانوا عبيدا، إما عن طريق أسرهم في الحرب، أو أنهم ارتكبوا إحدى الجرائم، أو أنهم لم يتمكنوا من دفع ديونهم"[٦٤].

خَاتِمَةٌ

وحاصل الكلام يمكن اعتبار رحلة "مانغو بارك" من الرحلات النفيسة والنادرة، نظرًا لما تزخر به من معطيات وبيانات وإضافات قيمة وفي غاية الأهمية، من شأنها-إذا ما استغلت بالكيفية المثلى والصحيحة-أن تسد الفراغ المعرفي والبياض الذي تشكو منه الكتابات التاريخية المحلية، التي يغلب عليها الشح والابتسار، سواء على صعيد عناصرها الإخبارية أو ما قدمته من حقائق ووقائع موثقة، وعليه فالعودة إلى مثل هذه النوعية من الكتابات الأجنبية-رغم نظرتها الاستعلائية وأحكامها المسبقة وخطابها الذي يشرعن للغزو والهيمنة- أضحت اليوم ضرورة ملحة يفرضها البحث التاريخي المعاصر، من أجل الاستفادة منها، خاصة في مقاربة مواضيع وقضايا جديدة تهم أساسًا: التاريخ الاجتماعي، تاريخ الذهنيات، التاريخ الاقتصادي، السياسي والديني، صحيح أن هذه الكتابات لم تمكننا من رسم صورة شاملة وواضحة حول تاريخ منطقة الحوض الأوسط للنيجر وحضارته، على اعتبار أنها تظل في التحليل الأخير قاصرة عن الإمساك بمفاصلها وتقديم تفصيلات حولها لانشغالهم بخدمة أهدافهم الاستعمارية، متذرعين بتتبع تفاصيل الحياة السياسية والاقتصادية والجوانب الجغرافية والطبوغرافية، فضلا عن كونها أعطت أحكاما متسرعة حول الحياة الاجتماعية كان معظمها مخالفا للحقائق التاريخية، بيد أنها على الأقل بإمكانها أن تستكمل لنا بعض التصورات وتسد بعض الفجوات التي تعاني منها باقي المصادر الإخبارية.

الاحالات المرجعية:

(١) مقاطعة في إسكتلندا.
(٢) جوزفين، كام، **المستكشفون في إفريقيا**، ترجمة يوسف نصر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣، ص ٨٨.
(٣) المرجع نفسه، ص ٨٨.
(٤) رئيس الجمعية الإفريقية التي تولت مهمة الكشف عن نهر النيجر.
(٥) جوزفين، كام، **المستكشفون في إفريقيا**، م. س، ص ٨٨.
(٦) المرجع نفسه، ص ٨٨.
(٧) جمعية تأسست في ٧ يونيو ١٧٨٨ كان الهدف منها تنشيط حركة الكشف الجغرافي للأقاليم الداخلية من إفريقيا تحث قيادة السير جوزيف بانكس عنه يُنظر: جوزفين، كام، **المستكشفون في إفريقيا**، م. س، ص ٨٦.
(٨) رحالة إسكتلندي أرسلته الجمعية الإفريقية للكشف عن نهر النيجر سنة ١٧٩٠ انطلاقا من نهر غامبيا عنه يُنظر: جوزفين، كام، **المستكشفون في إفريقيا**، م. س، ص ١١٢.
(٩) أو تينبكتو، وسميت بلهجة التماشق الطوارقية تنبكت، مدينة في مالي من أهم العواصم الإسلامية في غرب إفريقيا، وتلقب "بجوهرة الصحراء المتربعة على الرمال"، وهي البوابة بين شمال إفريقيا وغربها، وملتقى القوافل البرية، وتجارة الملح. وقد أنجبت العديد من الفقهاء والعلماء، وازدهرت فيها الحركة الثقافية، وتعاقب عليها الغزاة وآخرهم المستعمر الفرنسي الذي قاومته قبائل المنطقة بقيادة محمد علي الأنصاري الملقب بـ "أنقونا"، وتسمى منطقة تمبوكتو في الأرشيف الخاص بجمهورية مالي بقبيلة كيل انتصر لأن أغلب سكانها من الأنصار والطوارق وحلفائهم وبعض القبائل الأخرى ذات الأصول الإفريقية عنه يُنظر: هكار، أوغوسطان، **مونوغرافية تمبوكتو**، ترجمة زوليخة بنرمضان وحسن أميلي، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠١٧، ص ٢٧.
(١٠) تقع صانصاندينغ على الضفة اليسرى لنهر النيجر، على بعد ٥٠ كلم من سيكو، وقد أسست قريتها الأصلية حوالي سنة ١٢٢٠م على يد ألفا محمود كوما، وكانت في الأصل تسمى مانكوني (Mangoni)، ثم سينزاني (Sinzani)، ولم تأخذ إسمها الأخير إلى مع مجيء الفرنسيين عنه يُنظر: هكار، أوغوسطان، **مونوغرافية تمبوكتو**، م. س، ص ٥٧.
(١١) أو سيغو مدينة في مالي عاصمة مملكة بامبارة.
(١٢) هكار، أوغوسطان، **مونوغرافية تمبوكتو**، م. س، ص ٧٧.
(١٣) جوزفين، كام، **المستكشفون في إفريقيا**، م. س، ص ٨٨.
(١٤) نهر في إفريقيا الغربية، وهو الثالث في القارة الإفريقية من حيث الطول بعد النيل والكونغو. وينبع من سيراليون عند سفوح جبال لوما (Loma)، حيث بعد انعطافة واسعة في تخوم الصحراء ينساب ليصب في الأطلنتيكي عند ساحل نجيريا، بعدما يخترق أراضي ستة دول إفريقية، اشتقت اثنتان منهما اسميهما منه عنه يُنظر: هكار، أوغوسطان، **مونوغرافية تمبوكتو**، م. س، ص ٣٣.
(١٥) المرجع نفسه، ص ٧٧.
(16) Park, Mungo, **Travels in the Interior Districts of Africa**, Publications, Portage, London, 1799, p 1-2.
(17) Ibidem, p 5.

(١٨) هي قرية صغيرة في أراضي مالك ياني، أسسها الرعايا البريطانيون كمصنع للتجارة، ويسكنها هم وخدمهم السود تقع على ضفاف نهر غامبيا.

(١٩) جوزفين، كام، **المستكشفون في إفريقيا**، م. س، ص ١٠٥.

(٢٠) المرجع نفسه، ص ١٠٥.

(21) Park, (M), **Travels in the Interior ...**, op, cit, p 7.

(22) Ibidem, p 7.

(23) Ibidem, p 37.

(24) Ibidem, p 28.

(25) Ibidem, p 37.

(26) Ibidem, p 6.

(27) Ibidem, p 25.

(28) Ibidem, p 13.

(٢٩) هكار، أوغوسطان، **مونوغرافية تمبوكتو**، م. س، ص ٤٩.

(٣٠) المرجع نفسه، ص ٤٩.

(٣١) نفسه، ص ٤٩.

(32) Park, (M), **Travels in the Interior ...**, op, cit, p 13.

(33) Ibidem, p 13.

(٣٤) هكار، أوغوسطان، **مونوغرافية تمبوكتو**، م. س، ص ٤٩.

(٣٥) المرجع نفسه، ص ٤٩.

(٣٦) نفسه، ص ٥٠.

(37) Park, (M), **Travels in the Interior ...**, op, cit, p 13.

(38) Ibidem, p 13.

(٣٩) مؤسسة خاصة بتعليم أبناء العامة أو الرعية، وقد أقيمت هذه المؤسسة بجانب المسجد أول الأمر، تحرزا من نجاسة الصبيان للمساجد، ولكي لا يتخذ المسجد مكانا للتكسب، لذلك كانت تعرف بالمسيد في العامية، وتسمى كذلك المحضرة. عنه يُنظر أسكان، الحسين، **تاريخ التعليم بالمغرب خلال العصر الوسيط (١-٩هـ/٧-١٥م)**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، ٢٠٠٤، ص ٩١.

(40) Park, (M), **Travels in the Interior ...**, op, cit, p 33.

(41) Ibidem, p 34.

(42) Ibidem, p 36.

(43) Ibidem, p 57.

(44) Ibidem, p 58.

(٤٥) الدخن أو البشنة (وبالعربية إيلان): وتطلق الكلمة على حبوب بعض الأنواع النباتية المنتمية إلى الفصيلة النجيلية هي الثمام، والثيوم، وذيل الثعل. وينبت خاصة في المناطق الجافة في قارتي إفريقيا وآسيا، وينتج حبوبا دقيقة جدا. يُنظر: هكار، أوغوسطان، **مونوغرافية تمبوكتو**، م. س، ص ٣١.

(46) Park, (M), **Travels in the Interior ...**, op, cit, p 19.

(٤٧) هكار، أوغوسطان، **مونوغرافية تمبوكتو**، م. س، ص ٥٥.

(48) Park, (M), **Travels in the Interior ...**, op, cit, p 13.

(49) Ibidem, p 13.

(٥٠) الماندي أو الماندنجو من أهم الشعوب التي يتألف منها السنغال، إذ يحتل هذا الشعب الإقليم الممتد فيما بين المحيط الأطلسي وأعالي نهر النيجر. وتظم الماندي قبائل الديولا والكاسونكي والبانمانا والسوننكي والفى، ويقال أن الماندي كانوا يحتلون في السودان مكانة مشابهة لقبائل الهوسا في نجيريا الشمالية عنه يُنظر: فيج، جي دي، **تاريخ غرب إفريقيا**، ترجمة يوسف نصر، دار المعارف، الطبعة الأولى، ١٩٨٢، ص ٥١.

(51) Park, (M), **Travels in the Interior ...**, op, cit, p 24.

(52) Ibidem, p 47.

(53) Ibidem, p 24.

(54) Ibidem, p 24.

(55) Ibidem, p 19.

(56) Ibidem, p 14.

(57) Ibidem, p 17.

(58) Ibidem, p 29.

(59) Ibidem, p 24.

(60) Ibidem, p 24.

(61) Ibidem, p 23.

(62) Ibidem, p 14.

(63) Ibidem, p 14.

(64) Ibidem, p 17.